التغريب الثقافي: رؤية نظرية وتحليلية حول الظاهرة

د. لامية طالة
جامعة الجزائر3
كلية علوم الإعلام والاتصال

تاريخ الإرسال:11-10-2018 **تاريخ القبول:05-11-2018**
تاريخ النشر:12-12-2018

ملخص:
إن الدعوة للحفاظ على خصوصيتنا الثقافية، أمر في غاية الأهمية، خاصة بعد أن كثرت المخاطر التي تواجه أمتنا العربية والإسلامية وتهدد ثقافتنا وهويتنا الوطنية؛ وأهمها الهجمة الشرسة ضد الإسلام واللغة العربية وحالة التغريب السائدة في ظل العولمة، وتأثير ثقافة العدد الهائل من الأجانب، والتغيرات السريعة في كثير من جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية... لذلك يجب أن نتحدث صراحة وندق ناقوس الخطر، تلك المخاطر وتأثيراتها الحادة، لعبت دوراً كبيراً في إضعاف الجسد الثقافي، فقد جعلته يعاني من حالة ضعف في أسلوب المقاومة، كما تسببت في اختفاء العديد من القيم والملامح الثقافية والاجتماعية الأساسية في المجتمع.
الكلمات المفتاحية: التغريب، الثقافة، الغزو الثقافي، الاختراق الثقافي، الأمركة، الأمبريالية الثقافية.

Abstract:
The call to preserve our cultural privacy is very important, especially after the dangers facing our Arab and Islamic nation are threatened and threaten our culture and national identity, The most important is the vicious attack against Islam, the Arabic language, the Westernization situation prevailing in globalization, the impact of the culture of the large number of foreigners, In many aspects of social and cultural life ... Therefore, we must speak out loud and alarm, these risks and their acute effects, played a large role in weakening the cultural body, it made him suffer from a weakness in the resistance method, and caused the disappearance of many values and money Cultural and social milestones in society.
Keywords: Westernization, Culture, Cultural Invasion, Cultural Penetration, Americanization, Cultural Imperialism.

مقدمة:

تشكل الحضارة والسيطرة الغربية اليوم تحدياً مستمراً وشاملاً لكل الشعوب الأخرى علمياً، عسكرياً، سياسياً، تقنياً، صناعياً، اجتماعياً، ثقافياً وروحياً معا، ومع استمرار هذه الغلبة وتوسع دائرتها وتعمق الشعور بضخامتها يزداد إيمان الشعوب الضعيفة بعجزها وفقر ثقافتها، ويرسخ لديها النزوع إلى الاقتداء وتقليد الغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، وذلك لدى الخاصة والعامة معا ولا فرق في ذلك.

هـذه الصـيرورة أفضـت فـي الأخيـر إلـى انتشـار ظـاهرة التغريـب وتحيَـز الثقافـات والمجتمعات في دول العالم الثالث إلى الغرب، والإعجاب بثقافته واعتبارها نموذجا يستحق الاقتداء به، وليس من الضروري أن تؤدي الهيمنة الثقافية إلى إزالة الثقافات المحلية كلية من الوجود بل يمكن أن يعني ذلك احتوائها واستتباعها، ومن المعروف تاريخيا أن كل هزيمة تتكبدها مجموعة بشرية تنعكس مباشرة على أيديولوجيتها أو اعتقاداتها، وهذا ما عبّر عنه ابن خلدون عندما قال: "إن المغلوب مولع دائما بمحاكاة الغالب والاقتداء به، لأنه يعتقد أن انتصاره راجع إلى صحة مذاهبه وعوائده".

عندما يتحدث الباحثون والمفكرون المسلمون عن التغريب، فإنهم يشيرون إلى واقع يومي مَعيش مشاهَد في الحياة المادية والاجتماعية والنفسية والثقافية والحضارية، واقع صنَعَته ظروفٌ تاريخية عصيبة، وتضافرت على نسْج خُيوطه عواملُ كثيرة، وبالنظر إلَى عُمق ظاهرة التغريب في حياتنا الثقافية المعاصرة، فإننا نرى هؤلاء الباحثين يستعملون عددًا من المصطلحات للدلالة عليه، نحو «الاغتراب الثقافي»، و«الإلحاق الثقافي»، و«الاسْتِلاب الثقافي»، و«المَسْخ»، ... ومن المؤكَّد أن مصطلح «التغريب»، بدلالته المعاصرة المعروفة، من نَتاج الفكر الغربي، ويرتبط بالحركة الإمبريالية الأوروبية التي انطلقت في القرن التاسع عشر، وهو ما سنتناوله من خلال هذا المقال، وذلك بالتطرق إلى مفهوم التغريب الثقافي، أوجهه، ومختلف آلياته.

أولا: مفهوم التغريب في الأدبيات العربية

لغويا: التغريب من الناحية اللغوية مصدر بوزن (تفعيل) من صيغة فعّل، وهو مأخوذ من مادة (غ- ر- ب). ورد في اللسان: غَرُبَ فلان بمعنى: بَعُد، مصدره الغرب. والغرب: التنحي والذهاب عن الناس.

ويُقال: غَرُب، يَغْرُب، غَرْبا، و غرّب، غرّبه، أغربه: بمعنى نحّاه، فاتضح من ذلك أنه بالتضعيف صار الفعل "غرّب" على وزن" فعّل"، وهذه الصيغة تدل على التعدية، وعلى التكثير والمبالغة، والدلالتان مجتمعتان في (غرّب)، فالتعدّية تتضح في نقل الفعل من اللزوم في استعمالهم (غَرُب فلان: بَعُد) إلى التعدّي بقوله غرّبه، بمعنى أن المُغرِّب حمل المُغرَّب على البعد والابتعاد دون إرادته، وهذا يتوافق وما يؤدي إليه الحديث حين ورد في اللسان أن النبي أمر بتغريب الزاني سنة إذا لم يحصن، وهو نفيه من بلاده[1]. **اصطلاحا:** لقد وُضعت عدة تعريفات لمفهوم التغريب ربما من أبرزها تعريف بشاير العبد الله التي ترى أن: "التغريب هو تيار فكري كبير ذو أبعاد سياسية واجتماعية وفنية وثقافية يرمي إلى صبغ حياة الأمم بعامة والمسلمين بخاصة بالأسلوب الغربي، وذلك بهدف إلغاء شخصيتهم المستقلة وخصائصهم المنفردة، وجعلهم أسرى التبعية الكاملة للحضارة الغربية، فهو تيار هدفه القضاء على الإسلام ومعتقداته و التسليم لتبعية الغرب في كل توجهاته وأفكاره"[2].

أما جلال آل أحمد فقد أطلق على التغريب مصطلح "غرب زَدَكي"، وهو مصطلح متشبع بدلالات سلبية، بل دلالات هجائية لكل ما هو غربي، ويوازيه بالعربية "وباء الغرب"، أو "الإصابة بالغرب"، أو "التسمم بالغرب"، أو"نزعة التغريب"... حيث عرّفه على أنه: "مجموعة الأعراض التي تطرأ على حياتنا في جوانبها الثقافية، الحضارية والفكرية، من دون أن يكون لها أي جذور في التراث أو أي عمق في التاريخ، وبدون أن يكون دخولها

تدريجيا، يسمح بالاستعداد لها، وإنما تداهمنا دفعة واحدة، لتقول لنا: أنا هدية الآلهة إليكم، أو قل إنها الممهد للآلهة"[3].

وهذا ما فسره رفيق حبيب حين قال: "التغريب هو محاولة تغيير الحضارة العربية الإسلامية للتحول عن قيمها الأصيلة وتقلّد أو تتبنى قيم الغرب، بمعنى محاولة هدم قيم الأمة والدعوة إلى الحداثة التي تروّج لها بعض النخب، هي دعوة لنشر النظام الغربي ونمط الحياة الغربية بين أبناء أمتنا، وبذلك الخروج عن الأصول الحضارية لنا، فالحضارة الغربية تختلف عن الحضارة العربية الإسلامية في القيم العليا الحاكمة، ولهذا تصبح الدعوة لإعادة إنتاج النظم الغربية ونمط الحياة الغربي، دعوة للتنازل عن القيم الحاكمة للحضارة العربية الإسلامية"[4].

ولعل محمد يوسف كان أشد تعبيرا في تعريفه للتغريب حيث قال: "إن التغريب –في أحد أوجهه- ليس إلا اللباس الثقافي للتصنيع، لكن تغريب العالم الثالث (والذي يتكون معظمه من الدول الإسلامية) هو عملية محو للثقافة، بمعنى أنها عملية تدمير بلا قيد ولا شرط للبنيات الاقتصادية، الاجتماعية والعقلية التقليدية، لكي لا يقوم مقامها في حينه سوى كومة كبيرة من الخردة، مصيرها الصدأ".

ويواصل الباحث بأن هذا الذي يعرض على سكان العالم الثالث لكي يحل محل هويتهم الثقافية الضائعة، إنما يتضمن صنع شخصية وطنية عابثة، ذات انتماء خداع إلى مجتمع عالمي (هو الغرب)... [5].

أما حسب قاموس Le petit Larousse فإن مصطلح " تغريب " المشتق من الفعل غرّب occidentaliser فيعني: "أن يُعدّل شعب أو مجتمع ما بطريقة مشابهة لعادات الغرب، تغريب القيم، التقاليد... من خلال الاتصال بحضارته"[6]

لكن قبل إعطاء رأينا حول مفهوم التغريب، لا بد من إبداء ملاحظة مهمة حول هذا المفهوم (التغريب)، فقد يطلق عليه عدة مصطلحات بهدف تجميله وفتنة الآخرين به مثل: المدنية، التطور والتقدم، الحضارة، الحياة الجديدة، التغيير الاجتماعي، التحديث، التنوير، التجديد، العصرنة، الاتصال الثقافي، التثاقف... وهو ما يمكن تسميته بالفوضى الخطيرة في استخدام المفاهيم، فمثلا نجد أن ممدوح طه قد شرح جزءا من هذه الإشكالية من خلال التفريق بين التحديث والتغريب فحسبه:

التحديث: في معناه الموضوعي يعني التجديد لكل ما يحتاج إلى تجديد لحاقا بمنتجات الحضارات الحديثة، وتكيّفا مع روح العصر وصولا إلى التقدم، بما تتطلبه المصالح الإنسانية المشروعة سواء في المعارف وليس في القيم، في المهارات وليس في التوجهات، وباختصار في المظهر وليس في الجوهر الحضاري.

التغريب: يعني الاتجاه الكلي نحو الغرب مبنى ومعنى، مظهرا وجوهرا، أدواتا وغاياتا، بما يشكل استلابا كاملا للإرادة وذوبانا ثقافيا وحضاريا وتبعية أو محاكاة أو تقليدا، الأمر الذي يفضي في النهاية إلى اغتيال للهوية الثقافية والحضارية الوطنية والقومية، وقد يعني أن ليس هناك تلازما دائما بين المفهومين: فالتحديث لا يعني قطع الصلة بالتاريخ لأنه غير ممكن ولا بين الماضي والمستقبل لأنه مستحيل[7].

من جهته مفهوم التثاقف أو المثاقفة هو محل خلط بينه وبين مفهوم التغريب، حيث يستعمل علماء النفس والاجتماع مفهوم المثاقفة بمعنى: "صيرورات تكيّف الفرد مع البيئة الثقافية وتأثره التكوّني بها.

رغم أن المثاقفة تتطلب – كما تقول الآية الكريمة-"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا"[8]، أي "فرصا وعلاقات ووسائل متكافئة، ورغبة في مد الجسور والحوار والتعارف والتعاون وكل ما من شأنه تقوية الإنسان".

وحسب عبد الفتاح مراد فالتثاقف يفترض أولا احتكاكا مطوّلا بين ثقافتين مختلفتين، ثم تأثير إحدى الثقافتين في الأخرى، أو التأثير الثقافي المتبادل فيما بينهما، بحيث تعدل المسالك الثقافية والاجتماعية عند أحد الفرقاء أو عند الاثنين معا، فالتثاقف على الصعيد النظري يعني التبادل الثقافي المتكافئ أو غير المتكافئ، يعني أيضا تبني أحد الأطراف النماذج الثقافية للطرف الآخر[9].

أما المثاقفة بالمعنى التغريبي فغالبا ما كان يأتي في إطار معادلة استعمارية أو استيطانية مثل: غزو فرنسا للجزائر، الحروب الصليبية، غزو القارة الأمريكية... مما يشوه من معنى التبادل الثقافي*.

أما اليوم فاستخدام كلمة تثاقف يأتي مباشرة في سياق معادلة سياسية، فالثقافات لا يتم تبادلها على وجه الأرض لمجرد الإعجاب بنماذجها، بل إنها تتصارع فيما بينها علنا في كل يوم أكثر، فالنماذج الثقافية الحديثة تتزامن مع أنظمة الاستهلاك الاقتصادي التي تسعى إلى الاستيعاب أكثر مما يؤدي إلى التصادم، فالتثاقف بالمعنى التغريبي يسعى إلى: "تعميم الإعجاب بالنماذج الثقافية الغربية المتفوقة، بغية تنشيط عجلة الاستهلاك لمنتجات هذه النماذج وتأمين الربح الاقتصادي مثل: السينما، التليفزيون..."[10].

ومن خلال كل هذا نستنتج أن التغريب ليس عملا جغرافيا يتعلق بمنطقة (الشرق أو الغرب)، بل هو نقل نموذج ثقافي أجنبي واستنباته في بيئات مختلفة عنه، في الثقافة والقيم الدينية، الاجتماعية والأخلاقية، وإن كانت تلك البيئات المختلفة تعيش قضايا مختلفة وقيما مختلفة، فهي أشبه بالعملية القسرية بتحويل قيم إلى قيم أخرى، وهوية وخصوصية إلى هوية وخصوصية أخرى، ضاربة بالتاريخ والدين عرض الأرض، أي أن التغريب يفيد نبذ الشرق والعرب والإسلام وكل ما يمت إلى القديم بصلة من قريب أو من بعيد، من دين، تقاليد، موروثات، حضارة، لغة، وأي شيء يتعلق بهذا الماضي، واللحاق مباشرة بالمدنية الغربية، بكل حسناتها ومساوئها.

وهنا نلاحظ تناقضا غريبا يدعو للعَجب، حيث نجد أن هؤلاء الذين كانوا ينتقدون التقليد، وإتباع القديم كانوا في نفس الوقت يقلدون الغرب، فالجديد هو في حقيقة الأمر لا يعدو أن يكون قديم الأوروبيين !!!.

ثانيا: أوجه التغريب "منابعه":

لابد من الإشارة إلى أن المنابع هي النقاط التي ينطلق منها المشروع التغريبي، ويمكن حصر هذه الأوجه أو المنابع فيما يلي:

1-السياسة: في صورة ضغوط سياسية تمارسها القوى المهيمنة بواسطة أدواتها كمجلس الأمن، وهيئة الأمم المتحدة ولجانها المتعددة على الدول الضعيفة- الإسلامية خصوصا- لتنفيذ خطط التغريب تحت شعارات: الإصلاح، الديمقراطية، التعددية، الليبرالية، حقوق

الإنسان (الأقليات الدينية والمذهبية والعرقية)، وفي بعض الحالات تلجأ إلى الحروب المباشرة لفرض التغريب بالقوة كما حدث في احتلال أفغانستان والعراق تحت ذريعة حرب الإرهاب[11]، فالغرب حاول فرض السمة الغربية وشكلها في التشكيك بجدية الحكم الإسلامي ووجوده، وفي جدوى الخلافة حينها بطريقة غير علمية ولا مدروسة، وتقديم النموذج الغربي كأساس في التقنين والتشريع والحاكمية دون اعتبار للفقه أو المبادئ أو المحكمات الإسلامية[12].

1. **الاقتصاد:** في هيئة تحولات اقتصادية كبرى، تهيئ لخطط التغريب، هذه التحولات تتركز في صور: التجارة الحرة التي تجيز كافة أنواع البيوع، حتى المحرمة عينها ووسيلتها، من غير نظر إلى دين أو خُلق سوى زيادة الأرباح.
2. **المجتمع:** من خلال هدم الأخلاق، اللغة، والتاريخ فأُذيع الإلحاد ونشرت الإباحية، تحت اسم حرية الفكر، بالدعوة إلى التحرر من قيود البيئة والوراثة وكل ما فيها من عقائد ونظم وقوانين، مع التشكيك في كل الآراء والأفكار والعقائد الموروثة والمتداولة، وركز هذا العمل على زلزلة النظام الاجتماعي وتحطيم الأسرة وانتشار المخدرات، دور البغاء وتجارة الرقيق الأبيض، ...[13].
3. **الثقافة:** وهي ثقافة بديلة تُنظِّر وترسخ التغريب، تقوم على فكرة الحرية الفكرية وإبطال كل الموانع بدعاوى الإبداع والفن، تستعمل فيها: الصحف، المجلات، الروايات، الكتب والقصص، وصورة التغريب هنا هي اختراق كافة النقاط المحرمة في الدين والأخلاق والقيم، بالتحدث حول: الذات الإلهية، المقام النبوي، الدين، التراث والسلف بكلام غير مقدس ولا معظم، وفيه كثير من الجرأة والتنقّص، وطرق الكلام والأفكار الإباحية بشكل علني مكشوف غير مستتر، وفي مقابل هذا الحطّ من الثقافة الإسلامية هنالك رفع من شأن الثقافة الغربية ورموزها[14]، هذا الوجه الثقافي الذي شارك في وضعه مجموعة من الكتاب والمثقفين والأدباء الذين يسعون إلى نقل الحضارة الغربية للمسلمين العرب: نقلها وأخذها كلها، بخيرها وشرها، حلوها ومرها، ويصرح بعضهم بأنه مؤمن بالغرب كافر بالشرق، فكأن هذه المفاهيم أرادت إحلال ثقافة محل أخرى، ونزع قيم لحساب قيم أخرى، وجعل الغرب هو المصدر الأوحد لكل جوانب الحياة [15].
4. **الديـن:** تعددت حملات كُتاب الغرب الذين قادوا معركة التغريب الثقافي على الدين وعلى الإسلام بالذات، بادعاء أنه سبب التخلف للعرب والشعوب التي اعتنقته ومن بين هذه الحملات حملة " الدوق داركور" بكتابه "مصر والمصريون" الذي صدر عام 1893، حيث حاول فيه المؤلف أن يصور الإسلام في صورة الدين الخرافي العتيق، ويصوّر المسلمين في صور الضعاف العجزة، ونعى على المصريين ضعف الخُلق القومي، وعزا تأخر الحركة الفكرية إلى الإسلام، وقال أنه- أي الإسلام- هو السبب الأساسي في هذا التأخر وأنه منعهم من البحث في العلوم غير الدينية، وأنكر أن للعرب الأوليّن مدينة خاصة، واتهمهم بإحراق مكتبة بالإسكندرية بالإضافة إلى أنه اتهم الإسلام بتبديد حقوق المرأة وظلمها[16].

وساد الاعتقاد لدى مفكري الغرب أن الإسلام والعلم لا يتفقان مما استوجب القول استنتاجا أن الإسلام والمدنية لا يتفقان، ويعبّر أرنست رينان عن ذلك قائلا: "لكل من كان مطلعا بعض الاطلاع على أحوال زماننا يشاهد بوضوح انحطاط البلدان الإسلامية الحالي، وتقهقر الدول الخاضعة لحكم الإسلام، وانعدام معالم الفكر لدى الشعوب التي اقتبست عن هذا الدين

وحدة ثقافتها وتربيتها، فجميع من يأتون من الشرق أو إفريقيا يدهشهم ضيق التفكير المحدود بصورة حتمية لدى المؤمن الحقيقي، وذلك الطوق الحديدي الذي يطوّق رأسه فيجعله مغلقا بإحكام في وجه العالم وعاجزا عن تلقي أي شيء أو الانفتاح على أي فكرة جديدة"[17].

ولكن الغريب في الأمر أن نفس الكتاب الغربيين الذين يهاجمون الدين الإسلامي تراهم يعبرون عن تخوفهم من هذا الخطر الحقيقي الكامن في نظام الإسلام، وفي قوته على التوسع والإخضاع، في حيويته، وأنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي بل والحضارة الأوروبية، ويعبر القس سيمون عن هذا الإحساس عند الأوروبيين بقوله: "إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السمر- وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية"[18].

أما غلادستون فيرى أنه: " مادام هذا القرآن موجود فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان"[19]، لذا لابد من الدعوة إلى أن يطبع العالم الإسلامي بطابع الغرب الحضاري. وهذه الآن جملة من الاتهامات التي حاول هؤلاء المفكرين الغربيين إلصاقها بالدين الإسلامي والمسلمين:

- إن الإسلام يرفع حق الربوبية ويجعل الإنسان في حضيض الضعف ودرك الوهن، ونتيجة لذلك تحريض الإنسان على إغفال شؤون نفسه وبث القنوط في قلبه وتثبيط همته، فهو متأثر بالمذهب السامي، ولذلك فهو ينزل بالإنسان إلى أسفل الدرك ويرفع الإله عنه في علاء لا نهاية له، كما أنه عقبة في سبيل العلم والحضارة.
- إن الإسلام ناجح كعقيدة ودين، ولكنه فاشل كنظام اجتماعي، فهو متعصب متطرق يبيح لأتباعه أن يتخذوا المخالفين لهم في العقيدة أسرى حرب ورقيق.
- مناف للتجديد ولم يكن صالحا إلا للزمن والمحيط الذي وُجد فيهما، وأن المسلمين لا يمكن أن يرقوا في سلم الحضارة والتمدن، إلا بعد أن يتركوا دينهم وينبذوا القرآن وأوامره ظهريا لأنه يأمرهم بالخمول والتعصب، ويثبّت فيهم روح البغض للأغيار والشقاق وحب الانتقام، فهو العقبة الكئود في سبيل رقي الأمة الإسلامية.
- إن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر، بل هو عائق له بما فيه من اعتقاد في الغيبيات وخوارق العادات والإيمان التام بالقضاء والقدر.
- كما أن قوانينه وُضعت لتناسب الجزيرة العربية في القرن السابع ميلادي، والآن أصبحت لا تسمح بالمرونة الكافية لمواجهة المجتمع الإنساني، فهو يحرم المرأة من كل حقوقها ويعتبرها أحط من الرجل، بالإضافة على أنه يبيح الرق[20].
- اعتبار القرآن فيضا من العقل الباطن مع الإشادة بعبقرية الرسول (ص)، ألمعيته، صفاء ذهنه ووصف ذلك بالإشراق الروحي تمهيدا لإزالة صفة النبوة عنه.

وهكذا فقد عوّل الاستعمار في غزوه الفكري وحملته التغريبية، على حشد أكبر قواه لزلزلة قواعد الدين، القضاء عليه، عزله عن المجتمع، تحطيم قواعده، إبعاده عن ميدان السياسة والاجتماع والفكر، سلبه سلطانه، وفرض قوانين أجنبية وتشريعات غربية بدلا عنه[21]، أي بمعنى آخر محاولة هدم الإسلام عقائديا، فكريا وحضاريا:

عقائديا: بالتشكيك في القرآن الكريم والحديث الشريف وإرجاع الإسلام إلى أصول يهودية.

فكريا: بترسيخ الاعتقاد بأن العقلية العربية عقلية حسية، مادية، محدودة الآفاق، وبهذا فهي غير مهيأة للقيام برسالة الفكر الراقي أي الفكر الفلسفي، فكان اعتماد الحضارة العربية على

الفلسفة اليونانية اعتمادا كاملا، وبسبب عدم أصالة الفكر العربي جاءت فلسفته صورة مشبوهة للفلسفة اليونانية.

حضاريا: بترسيخ الاعتقاد بأن الإسلام لا يدعو على حرية الإنسان وانطلاقه التلقائي الحر، ولهذا جاءت حضارته وهي موسومة بسمة التحجر والجمود في أصفاد الإجماع الرجعي المتخلف[22].

كما شجعت هذه الحملات على الدين فكرة إيجاد فكر إسلامي متطور يبرر الأنماط الغربية ويمحي الطابع المميز للشخصية الإسلامية، بغية إيجاد علائق مستقرة بين الغرب وبين العالم الإسلامي خدمة لمصالحه، بمعنى محاولة الدمج بين الأفكار الغربية الإسلامية معللين ذلك بأن الفكر والمعتقدات الإسلامية بحاجة إلى الفكر الغربي لبناء حضارة تجمع بين الحضارتين، ويكون لها تأثير إيجابي على الأمة الإسلامية.

إلا أن الفكرة الأساسية التي بقيت مسيطرة على الفكر الغربي تجاه الإسلام والمسلمين تبقى موضحة في العبارة التي ما فتئ هانوتو Gabriel Hanotaux (وزير خارجية فرنسا) يرددها بمناسبة وغير مناسبة: "إن تقدم المسلمين مستحيل لأن الإسلام يحول دون ذلك، وأن كل حكومة انفصلت عن الشرق وسارت على منهج أوروبا نجحت، وأن "موات" الشرقي وضعفه وتخاذله وتواكله، و"حياة" الغربي وقوته وانتصاره مصدرها اتصال الأول بالدين، وانفصال الثاني عنه، وأن الرابطة الوطنية أقوى من الرابطة الدينية "[23].

ناهيك عن النظرة التي طبعت الشعوب الأوروبية المختلفة، ففي انجلترا: حضارة الرجل الأبيض الذين كانوا يعتقدون بمقولة "نحن الانجليز الذين مهما تكن نقائصنا فإننا أكثر استعدادا من أي جنس آخر بحكم التراث والمزاج والمران لقيادة الشعوب البدائية في طريق التقدم والحضارة"، وفي فرنسا "رسالة فرنسا"، وفي ألمانيا " ألمانيا فوق الجميع"[24].

وإذا أسقطنا هذه الفكرة على واقعنا الراهن نجد أن الانتماء الأمريكي- الإسرائيلي لقيم مشتركة، أقصى بشكل واضح العرب الذين يعتبرون خارجين عن الـ "نحن" الغربي، وفي ذلك يقول مايكل هانت: " إن مشاعر الأبوة والازدراء التي ظهرت في مغامرة الفيتنام تدل على التأثير الثابت والمستمر لنظرة إلى العالم قائمة على الثقافة ومستغرقة في اللون (لون البشرة)، والتي تضع الأمم والشعوب في ترتيب اجتماعي يندرج بين طرفين أحدهما الحضارة والحداثة، والآخر البربرية والجمود" ، وهذه النظرة تجعل الغرب ذا ميل نحو الإسرائيليين الذين ينظر إليهم كأوروبيين في صراع مع عرب سمر، ملتحين، مزواجين ومتعصبين، وهي نفس النظرة التي تغذي التماثل مع البيض المتحضرين في جنوب إفريقيا في مواجهة طبقة سوداء خرجت بالكاد من أصولها القبلية البدائية"[25].

وليس أدل على ذلك من مقولة المؤرخ الأمريكي "وليام ليفشتنبرغ" : " من زاوية نظر المؤرخ الأمريكي، يشكل العرب شعبا عاش خارج التاريخ... ويستطيع المرء أن يراجع أي كتاب من كتب تاريخ أمريكا، حتى الحديث منها ليخرج بانطباع مفاده أن العرب لم يكن لهم تاريخ أو أن تاريخهم لم يكن له أي شأن يذكر"[26].

وقد تعزز هذا الخطاب الغربي بخطاب الحداثيين في العالم الإسلامي مثل كتابات: هشام صالح الذي صرّح بقوله: " إننا يجب أن نلحق بفولتير وتصوره الطبيعي للدين... وأن العبرة هي بأعمال الإنسان... وليست بمعتقداته... أو حتى صلواته أو عبادته... ولابد من تأويل جديد

لتراثنا يختلف عن تأويل الأصولية... بل وينقضه... تأويل يكشف عن تاريخ النصوص التأسيسية (يعني القرآن والسنة) ويُحل القراءة التاريخية محل القراءة التبجيلية لهذا التراث ".
محمد شحرور الذي يبتكر لغة جديدة بقوله:" وكلمة صعيد الواردة في الآية (فتيمموا صعيدا طيبا) لا تعني وجه الأرض وما هو من جنس الأرض، لأن مقدمة الآية "وإذا قمتم للصلاة فاغسلوا..."، والغسل يقتضي إزالة الوسخ عن الجسم، إذن كلمة صعيد ليست ترابا أو غيره، وإنما هو منشفة نظيفة بيضاء معطرة !!! ".
* "أبو القسم حمد" الذي يقول:" لسنا في حاجة إلى السنة في بيان عدد الركعات، ونكتفي في ذلك بالقرآن الكريم، واستدل في ذلك بقوله تعالى" حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر"[البقرة:187]، على أن صلاة الفجر ركعتان.
واستدل بقوله تعالى: "فلا أقسم بالشفق" [الانشقاق:16]، بأن الشفق- وهو وقت غروب الشمس- له ثلاثة ألوان الأحمر، البرتقالي والأصفر... وهذا يدل على أن صلاة المغرب ثلاث ركعات. واستدل بقوله تعالى" الرحمان على العرش استوى"[طه:5] قائلا: والعرش له أربعة أرجل، وبالتالي فالصلوات الأخرى أي الظهر والعصر والعشاء رباعية؟!!"[27].
وغير ذلك من شاكلة هذا الفقه الأخرق الذي يدل على باطنية وجهل مركب في إيراد الآيات على غير معانيها المعروفة لغة وعرفا، أو ما يسميه العلماء بمعهود العرب في الألفاظ ومعانيها.

5. <u>اللـــغة</u>: من جهتها اللغة كان لديها نصيب من عملية التغريب، فلو تتبعنا تاريخ الدول النامية منذ ابتلائها بالاستعمار إلى غاية التحرر والاستقلال لاكتشفنا أن الحضور الأجنبي (الثقافي خاصة)، لم يكن مجرد ظاهرة ثقافية هامشية يعيشها الأهالي بل كان ظاهرة تسعى عن طريق لغة المستعمر إلى أن تصبح جزءا من الثقافة الرسمية للبلاد، فمنذ أن دخلت اللغة الأجنبية مدارس ومعاهد الناشئة في كل البلدان العربية التي ابتلين بالاستعمار، أصبحت الثقافة الغربية تنمو شيئا فشيئا تحت تأثير المناخ الاجتماعي، السياسي والفكري الذي أوجده المستعمرون والذي تقبله الأهالي وتوارثوه جيلا بعد جيل[28]. وهنا لابد من التنويه إلى نقطة مهمة جدا، وهي أن الغزو اللغوي هنا يتقسم إلى قسمين:

- إحلال لغة المستعمر محل اللغة القومية، تحت شعار مواكبة التحديث من ناحية أخرى فقد أثبتت الدراسات أن الشعوب ذات اللغة المكتوبة (التراث المكتوب) أقدر على مقاومة المستعمر من الشعوب ذات اللغة الموروثة شفهيا، فمهما طال الاستعمار فإن الأولى دائما ما تصل إلى استرداد هويتها واستقلالها.

إذن هناك حرب لغوية –إذا جاز التعبير- مؤداها انتزاع المثقف في تلك الشعوب بعيدا عن لغته القومية والحديث هنا عن العرب، ويتخذ هذا الانتزاع تارة شكل الزعم بعجز اللغة العربية عن مواكبة المعاصرة، وتارة أخرى يتم لأسباب برجماتية بمعنى أن اللغة الأخرى هي التي ستكفل للمثقف الانتماء الحضاري للعصر.

- الدول المتخلفة التي صارت النامية ثم سُميت العالم الثالث ثم تحولت إلى الجنوب، وهي كلها تحمل دلالة الضلالة والدونية بالنسبة للغرب المسمى الآن بالشمال، الذي يحمل في باطنه دلالة التقدم، السيادة، الديمقراطية، الإبداع، الابتكار... هذه العلاقة بين الدال والمدلول على بساطتها تعد من أخطر ما يمر على المتلقي[29]، إلا أننا ما يهمنا نحن هو القسم الأول من

هذا الغزو اللغوي الخاص بإحلال لغة الغرب محل اللغة الرسمية للدول الأخرى غير الغربية.

وفي هذا الصدد يقول سلامة موسى: "لنا من العرب ألفاظهم ولا أقول لغتهم، بل لا أقول كل ألفاظهم، فإننا ورثنا عنهم هذه اللغة العربية، وهي لغة بدوية لا تكاد تكمل الأداء إذا تعرضت لحالة مدنية راقية كتلك التي نعيش بين ظهرانيها الآن"[30]، ويضيف في موضع آخر: "... حرمان لغتنا من كلمات الثقافة العصرية هو لذلك حرمان للأمة من المعيشة العصرية، فنحن مازلنا نعيش بكلمات الزراعة، ولم نعرف كلمة الصناعة لذلك فإن عقليتنا قديمة جامدة متبلدة تنظر إلى الماضي، حتى أننا نؤلف في ترجمة معاوية ابن أبي سفيان في الوقت الذي كان يجب أن نؤلف عن هنري فورد أو كارل ماركس...، بلاغتنا التقليدية هي بلاغة الانفعال والعاطفة في الوقت الذي نحتاج فيه إلى تأكيد المنطق والعقل"[31].

اللغة وعاء الفكر وهي التي تشكل هوية الفرد والمجتمع، ومن ثم يصبح لكل مجتمع هويته المستقلة وثقافته المتفردة انطلاقا من لغته التي يتحدثها والتي تختلف بطبيعة الحال عن اللغات التي تتحدثها المجتمعات الأخرى[32].

يبقى الخوف الأكبر من أن يتحقق حلم "زكي نجيب محمود" حين قال: "إني أحلم لبلادي باليوم الذي اشتهيه لها فإنما أصورها لنفسي وقد ارتدينا من الثياب ما يرتدون -أي الغرب-، وأكلنا كما يأكلون، لنفكر كما يفكرون، وقد كتبنا من اليسار إلى اليمين كما يكتبون، وننظر إلى الدنيا بمثل ما ينظرون".

ثالثا: آليـــات التغريـب " عوامله"

إن عوامل التغريب الثقافي والحضاري كثيرة ومختلفة؛ فمنها القديم الذي يرجع إلى ظروف تاريخية قديمة، ولكن آثاره ما تزال قائمة تُحْدِث أثرَها في الوقت الحالي، ومنها ما هو حديث ومستمر في وجوده وتأثيره، يعايش المسلمين في حياتهم المعاصرة، ويُحدث تأثيره فيها، ومنها أيضًا ما يُعزى إلى أجواء داخلية تتمثل بالشعوب الإسلامية نفسِها، وما تعرفه من نُظم وأعراف وعوائد، ومنها ما يعود إلى قوى خارجية تتجلى في الإمبريالية والصهيونية، وفي صنائعهما من التبشير والاستشراق والتنصير، وحتى لا نطيل هنا، سنركز فقط على آليتين أساسيتين، وهما:

01: الغـزو الثقافـي:

تشير معاجم اللغة العربية إلى أن كلمة غزو تعني في جوهرها: القتل والنهب، فقد جاء في معجم لسان العرب لابن منظور: الغزو: السير إلى قتال العدو وانتهابه.

وبلغتنا المعاصرة يعني تدمير البنية التحتية للمجتمع المغزو والقضاء على إنسانه، ويتضح أيضا أن الغزو يأتي دائما من الخارج، أي من قبل مجتمع بعيد يفترض العداوة في المجتمع الآخر فينقض عليه[33].

أما معجم اللغة الفرنسية فيعرف الغزو " Invasion " على أنه:

* تدخل مسلح لدولة معينة على دولة أخرى.
* تدخل واسع مكثف مصحوب بالعنف وتدمير المنشآت يقوم به شعب معين خارجي ضد بلد معين، من أمثلة ذلك غزوات البربر والغزوات الكبرى[34].

وإذا قلنا أن الغزو جزء من الثقافة البربرية التي يرفضها الآخرون أي غالبية البشرية، فعندما يصبح الغزو ثقافيا فإن ذلك يعني أن الثقافة هذه تصبح هي كلها الإستراتيجية ويصبح

الغزو أداة لتنفيذها، وبمعنى أوضح أن نظام القيم والرموز الذي وضعته أو أوجدته هذه الثقافة المعادية يسعى عن طريق الغزو لأن يحل محل أنظمة القيم والرموز الذي وضعته الشعوب الأخرى، وذلك بالعمل على تدميرها والقضاء عليها[35].

جاء هذا المصطلح إلى واقعنا العربي المعاصر ثقافيا، إعلاميا ولغويا مع ظاهرة الاستعمار الحديث الذي استولت فيه البلدان الأوروبية على معظم الوطن العربي منذ أواخر القرن الثامن عشر (18) حتى أوائل القرن العشرين (20)، وقد مارست الدول الاستعمارية الغزو الفكري بمجموعة من الوسائل: الإعلام، التعليم، المنظمات (الشركات، النوادي والهيئات)[36]، فالغزو الذي اجتاح الأمة الإسلامية مصاحبا الغزو العسكري ألحق هزيمة أصابت هذه الأمة في العمق وتسبب في خسائر مادية ومعنوية فادحة، فكما تقول سوزان سلامة :" الأعداء إذا شنوا غارة على بلد ما فإنهم لا ينزلون به سائحين عابرين، ولا زائرين متفرجين، وإنما ينزلون به مستبيحين عرضه وكاسرين شوكته، فإن كانوا طلاب مغانم استنفذوا خيره ولم يدعوا لأهله إلا الفتات وإن كانت لهم أغراض دينية واجتماعية وضعوا الخطط الفكرية القريبة والبعيدة لمحو شخصية الأمة وتغيير ملامحها الفكرية والدينية[37]. ومن هنا فالغزو الثقافي ليس بالجديد، أما ما هو حديث فهو تعبيره عن محاولة مجتمع ما لفرض قيمه على مجتمع آخر بالقوة حيث قد تحدد مضمون هذا المصطلح في ضوء انجازات العلوم الإنسانية، ودخل القاموس السياسي حديثا معبرا بذلك عن الوعي السياسي للشعوب المتحررة وإيمانها بدور الثقافة دعامة لبناء اجتماعي حيوي أصيل ومتجدد[38].

عرّفه جلال أمين بأنه:" اعتداء رأسمالي على الهوية الثقافية للأمة المعتدى عليها، من أجل استقلالها اقتصاديا، كما يمكن أن نصنفه بأنه غزو دين لدين أو إحلال ثقافة أمة محل ثقافة أخرى"[39].

يصفه باسم خريسان بأنه الوليد غير الشرعي للغزو العسكري إلا أنه يختلف عنه كثيرا، ذلك أن الغزو العسكري يضر بالغزاة أكثر مما يحقق أهدافهم، فهو يحرك في الشعوب المغزوة عاطفة الولاء للدين والدفاع عن ثرى الوطن، ويثير فيهم حسن العمل الجاد للاستقلال من التبعية للأعداء، أما الغزو الثقافي فهو لا يعتمد المواجهة المسلحة أو استخدام القوة، إلا أنه أفضل للغزاة فوسائل الغزو الثقافي ناعمة، خادعة ومحفوفة بالشهوات مثل الطريق إلى جهنم لذا فإن الاستجابة إليه أسرع وأكثر تأثيرا... حيث أن آثار الغزو العسكري تنتهي بانسحاب قوات الاحتلال في حين يبقى أثر الغزو الثقافي قائما في عقول وقلوب الناس أكثر بكثير من قتل الأفراد، بل من قتل جيل بأسره إذ يتعدى ذلك إلى قتل أجيال متعاقبة[40].

وهكذا فإن الغزو الثقافي كما مثّله عبد العاطي نجم فهو آلية متممة لعملية التمغرب الثقافي ومن الواضح –حسبه- أنه عملية منظمة فلا جيش أجنبي يحتل البلاد، ولا عدو منظور (مرئي) يقاتله الشعب، بل هو كما يصفه صلاح البيطار: " غزو سلبي، بلغة أجنبية عذبة، ذات مذاق حلو على لساننا، يسعى إلى التشجيع على راحة البال اليومية للاطمئنان على الغد، كسل الذهن، وأن ليس في الإمكان أبدع مما كان"[41]. وللتذكير فجبهة الغزو الثقافي هي أخطر من الجبهتين: التبشير والاستعمار، كونها أعقد الجبهات أسلوبا وأفسحها ميدانا وأخفها حركة، وسلاحها أكثر تنوعا ورجالها لا يتميزون كالعسكريين ورجال الدين، ولا يوجد لهذا الغزو مؤسساته الرسمية الخاصة كما هو الحال بالنسبة للمؤسسات العسكرية والدينية: الثكنة والكنيسة، ومع ذلك فالمؤسسات الدينية، العسكرية، الاجتماعية، الاقتصادية، الثقافية

والسياسية كلها في خدمته بطريقة أو بأخرى[42]، وبالتالي فقد شكل الغزو الثقافي جزءا أساسيا من مشروع استعماري قديم يرقى إلى بدايات السيطرة الأوروبية على الوطن العربي، في إطار مشروع رأسمالي للسيطرة على العالم وتوحيده على قاعدة رأسمالية احتكارية، تشكل فيها أوروبا الصناعية مركز القلب وباقي المناطق مجرد أطراف تابعة وملحقة بها[43].

يقول ابن خلدون في معنى الغزو الثقافي: "إنما تبدأ الأمم بالهزيمة من داخلها عندما تشرع في تقليد عدوّها "[44]، والناظر اليوم إلى حال الدول التي كانت قد تعرضت للغزو الثقافي في السابق نتيجة للسيطرة الثقافية يجدها تعيش في أزمة ثقافية فلا يزال منهجها منسوخا عن المنهج الغربي ولا تزال عقول مثقفيها لا تدرك إلا النمط الثقافي الغربي، لذلك نجد هذه المجتمعات منقسمة بين فئة تعيش في غربة ثقافية، وهي الفئة التي تمثل النخبة القيادية والمفكرين، وفئة أخرى تمثل الثقافة الشعبية تعيش في غربة ثقافية عن عصرها[45].

وفي الأخير لابد من الإشارة إلى نقطة مهمة، هي أن الغزو الثقافي لا يتوقف حدوثه على الطرف الغازي فقط، وإنما على الطرف المتعرض للغزو أيضا، خاصة إذا كان هذا الأخير لا يملك القدرة على تجديد ثقافته.

02: الاختـراق الثقافـي

في البدء لابد من القول بأنه ليس هنالك فرق كبير بين الغزو الثقافي والاختراق الثقافي، فكلاهما يسعى على تحقيق نفس الهدف وإن كانا يختلفان في الوسيلة، ويعلل باسم خريسان ذلك بأنه إذا كان مفهوم الغزو الثقافي قد اقترن بمرحلة السيطرة الأوروبية المباشرة على العالم، فإن مفهوم الاختراق الثقافي قد اقترن بالتطور التقني في مجال الاتصالات والمعلومات بعيدا عن استخدام القوة العسكرية[46].

فقد ظهرت بوادر مرحلة جديدة من الاختراق الثقافي الذي يقف وراءه هذه المرة لا مدافع الاستعمار، ولا أجهزة الدعاية المقاومة "للشيوعية"، بل يقف وراءه ذلك التطور الهائل الذي عرفته وسائل الاتصال السمعية البصرية التي أصبحت تغطي جميع أرجاء العالم بواسطة البث عبر الأقمار الصناعية، تخترق جميع البيوت لتمارس الهيمنة الثقافية على بلدان العالم الثالث[47]. وبالتالي فالاختراق الثقافي هو: "حركة انتقال الأفكار والقيم والعادات الغربية بشكل مكثف وغير مسيطر عليه إلى المجتمعات العربية، وما يماثلها في دول العالم الثالث، كما يمثل سياسة و إستراتيجية للتدخل في شؤون الغير بقصد التأثير في ثقافتهم وسلوكياتهم ومعتقداتهم، تدخلا كليا أو جزئيا بمختلف الوسائل"[48].

أما هربرت تشيللر فيعرفه على أنه : "مجموعة صيرورات يدمج من خلالها مجتمع ما في إطار النظام الدولي الجديد، والكيفية التي تجعل فئته الحاكمة تُقبل عن طريق الإبهار، الضغط، القوة أو الرشوة على تشكيل المؤسسات الاجتماعية حسبما يتماشى مع قيم وهياكل المركز المسيطر للنظام، أو يتحول إلى داعية له "[49].

وفي هذا الصدد يقول عابد الجابري لقد كانت إستراتيجية الاستعمار الأوروبي منذ العهود الأولى من القرن الماضي تقوم في كل مكان على مبدأ: " يجب إخضاع النفوس بعد... إخضاع الأبدان" إخضاع الأبدان يتم بالمدفع، أما إخضاع النفوس فسلاحه التعليم والثقافة، ولم يكن من الممكن في ذلك الوقت الدخول في عملية إخضاع النفوس دون المرور أولا بمرحلة المدفع (إخضاع الأبدان)، لم يكن الاتصال ممكنا إلا بعد احتلال الأرض شبرا شبرا، والإمساك بالسكان قهرا لتبليغ الرسالة إليهم ، إما في السوق أو في المدارس، نعم لقد سبق

الاستشراق المدفع ومعه البعثات التبشيرية وغيرها، ولكن مهمته لم تكن تتجاوز الاستكشاف لتمهيد الطريق للمدفع، أما إخضاع النفوس فهو يستلزم الاتصال المباشر والواسع الذي يمهد له المدفع ويحميه، أما اليوم فالاتصال من دون "مدفع" ممكن وإخضاع النفوس عن بعد من مسافة بعيدة أصبح أمرا ميسورا جدا، بفضل التقدم الهائل في وسائل الاتصال السمعية البصرية، وإذا فلقد انقلب الوضع انقلابا: " لم يعد إخضاع الأبدان شرطا في إخضاع النفوس، بل بالعكس غدا إخضاع النفوس طريقا لإخضاع الأبدان ".

لقد عرّف القدماء من الفلاسفة البدن بأنه: " آلة تحركها النفس" وإذا فإخضاع النفس يستتبع حتما إخضاع آلتها (البدن) وينهي عابد الجابري تحليله بالقول: "تلك هي حقيقة الاختراق الثقافي في العصر الراهن، وذلك هو هدفه"[50].

عرّفه محمد حوات بأنه: " مجموعة الأنشطة الإعلامية، الثقافية والفكرية التي توجهها دولة أو جهة أو عدة جهات نحو مجتمعات وشعوب معينة، بهدف تغيير الاتجاهات وتكوين أنساق من السلوكيات والقيم والرؤى وأنماط التفكير لدى الشعوب ًلمخترقة بما يخدم مصالح وأهداف الجهة التي تمارس عملية الاختراق"[51].

وقد حدد الجابري هذه العملية حيث قال: "... إن الاختراق الثقافي يستهدف العقل والنفس ووسيلتهما في التعامل مع العالم: الإدراك، فهو يهدف إلى السيطرة عليه، اختطافه، وتوجيهه من خلال الصورة السمعية-البصرية، ومنه إلى تسطيح الوعي، أي جعله يرتبط بما يجري على السطح من صور ومشاهد ذات طابع إعلامي إشهاري مثير للإدراك، مستفز للانفعال، حاجب للعقل، ومع السيطرة على الإدراك يتم إخضاع النفوس بمعنى: تعطيل فاعلية العقل، تكييف المنطق والقيم، توجيه الخيال، تنميط الذوق، قولبة السلوك...والهدف تكريس نوع معين من المعارف والسلع والبضائع...إنه نمط الحياة الأمريكية، ولكن فقط في الجانب الاستهلاكي منه "[52].

ولعل من بين وسائل الاختراق التي تمارسها هذه الدول الغازية على العالم وفي مقدمته الوطن العربي، نجد أن نسبة الأفلام الأمريكية مثلا تزيد عن 70% من الأفلام المعروضة في الأقطار العربية، أما برامج التسلية التليفزيونية فتزيد عن 75% منها أمريكية، وفي العالم أجمع توجد 10 وكالات دولية للدعاية، 09 منها أمريكية، و04 وكالات للأخبار، 02 منها أمريكيتان، أما البث عبر الأقمار الصناعية فالسبق والهيمنة هو للولايات المتحدة طبعا[53].

وتشير دراسات كثيرة أهمها كتاب " الاختراق الإعلامي للوطن العربي" لمجموعة من الباحثين، أن أكثر القيم السلبية بروزا في المسلسلات الأجنبية التي تعرض على شاشات التليفزيونات العربية هي: الفردية، القسوة، العنف، التعصب، العدوانية، الخيانة، السرقة والخداع وأن تلك المسلسلات الأجنبية سيما الأمريكية منها ترويج الجوانب الانحلالية، كإقامة علاقة جنسية غير شرعية بين الجنسين، كما أنها تعكس ضعف الروابط الأسرية والاجتماعية على حد سواء، وأن معظم الموضوعات التي تقدمها المسلسلات الأجنبية لا تتناسب مع خطط التنمية، ومستوى التطور الاقتصادي الاجتماعي والثقافي في الدول العربية[54].

وبشكل عام لخّص الجابري أيديولوجيا الاختراق في أنها لا تقدم مشروعا للمستقبل أو تقدم نفسها كخصم بديل لآخر تسميه وتقاومه، وإنما تعمل على اختراق الرغبة في البديل ونشدان التغيير لدى الفرد والجماعة، وهذا انطلاقا من النتائج التي توصل إليها هربرت تشيللر حول

مكونات الثقافة الإعلامية الجماهيرية في الولايات المتحدة، حيث توصل أن هذه الثقافة تقوم على خمس (05) فرضيات أو مسلمات سماها أوهاما أو أساطير[55]، حيث يرى هربرت تشيللر بأن تسطيح الوعي يتم عن طريق ترسيخ نوع من الوهم لدى الجماهير، الذي من شأنه أن يزيّف وعيهم، يعلبه ويضلل عقولهم من أجل تطويعهم وكسب تأييدهم للنظام القائم الذي لا يخدم المصالح الحقيقية للأغلبية، وذلك عن طريق تكريس الاعتقاد لديهم بخمس أساطير، وبما أن تدفق المعلومات –حسبه- هو مصدر سلطة لا نظير لها، فليس من الواقعية في شيء أن يتم التخلي عن هذه السلطة[56].

وتتمثل هذه الأوهام أو الأساطير في:

1. **وهم الفردية:** أي جعل الإنسان يعتقد أن حقيقة وجوده محصورة في فرديته، وكل ما عداه أجنبي عنه ولا يعنيه، وإنما يعمل على تمزيق وتخريب الرابطة الجماعية التي تجعل الفرد يعي أن وجوده إنما يكمن في كونه عضوا في جماعة، في طبقة أو أمة، وبالتالي فوهم الفردية يهدف إلى إلغاء الطبقة والأمة وكل إطار اجتماعي آخر.
2. **وهم الخيار الشخصي:** يرتبط بالأول ويكمله، إنه يكرّس الوعي الأناني ويعمل على طمس الوعي القومي والطبقي.
3. **وهم الحياد:** مادام الفرد وحده الموجود، ومادام حرا مختارا، فهو محايد وكل الناس والأشياء إزاءه محايدون، وبالتالي إقصاء الالتزام بأية قضية جماعية، وطنية، طبقية أو أخلاقية، حيث يقتضي التضليل الإعلامي واقعا زائفا هو الإنكار المستمر لوجوده أصلا، ولذا يجب أن يؤمن الشعب بحياد مؤسساته الاجتماعية، في حين يتم اللجوء إلى هذا الحياد لوصف الأداء الوظيفي للأنشطة المحملة بقيم وأغراض محددة تقدم الدعم للنظام المؤسساتي السائد.
4. **وهم الطبيعة البشرية الثابتة:** التي لا تتغير والذي يرمي إلى صرف النظر عن المطالبة بإلغاء الفوارق الاجتماعية بين الأغنياء والفقراء، البيض والسود، وقبولها بوصفها أمورا طبيعية كالليل والنهار، بمعنى إعطاء النظام الاجتماعي بعدا استاتيكيا تماما، وبالتالي تكريس الاستغلال والتمييز العنصري.
5. **وهم غياب الصراع الاجتماعي:** الذي يأتي صريحا في منطوقه ومفهومه، حيث أن تكريس غياب الصراع الاجتماعي معناه-إذا قبلنا به وسلمنا له- الاستسلام إلى الجهات المستغلة من شركات ووكالات وطبقات وأقليات متسلطة، أي إلغاء الصراع الطبقي وتعطيل النضال القومي وغلق الأبواب أمام آفاق التغيير نحو الأحسن.

ومحصلة كل هذه الأوهام التي تكرسها الثقافة الإعلامية الجماهيرية الأمريكية هي ما أسماه الجابري ب "أيديولوجيا الفردية المستسلمة" بالنظر على ما تعمل هذه الأوهام على إقصاؤه والتخلص منه[57]، أو ما عبر عنه أديب خضور بالعقم الثقافي للمواد المنتجة بغرض التصدير إلى البلدان النامية... من خلال تخفيف وتطهير هذه المواد من أي مضمون ثقافي- حضاري أصيل، محلي وخاص، وجعلها سلعة موجهة إلى كل الأذواق، أي أنها نماذج حسب الطلب خالية من أية هوية وخصوصية، ترسيخ السطحية والنمطية[58].

ولعل الاختراق الثقافي الذي يمثل أحد المداخل المهمة لاقتحام عقول المثقفين العرب والمخاطبة الفكرية معهم ومن ثم التأثير في قناعاتهم بالأسس والمرتكزات الجوهرية

التاريخية للثقافة العربية، سيكون الآن وسيبقى غدا المحرك والموقد والمغذي للصراع التناحري والحرب الأهلية في المجتمع العربي... الحرب بين الأصولية والتغريب[59].

كانت هذه أول مظاهر الصراع في الثقافة العربية: التنافر والتنابذ بين مرجعيتين:

-**الأولى:** قديمة تنتمي إلى الماضي، لكنها وطنية تحمل معها مصداقيتها التاريخية.

-**الثانية:** حديثة، أجنبية الأصل والمصدر، لكنها تفرض نفسها كمرجعية عالمية، كحاضر ومستقبل العالم كله[60].

وفي هذا الإطار لا بأس من التنويه عن رأي حامد خليل بخصوص هذا الصراع، فهو يرى أنه سواء بالنسبة للأنصار أو الرافضين للثقافة الغربية فقد وقعوا في خطأ منهجي قد يكون السبب في تأجيج هذه الحرب الثقافية الأهلية العقيمة الدائرة بين التيارات في الوطن العربي- فحسبه- الأنصار يدّعون أن الحداثة هي وسيلة العرب الوحيدة إلى امتلاك العصر، وبالتالي إلى تحقيق نهضتهم وهي التي تفصح عنها ثقافة الغرب التي ليس أمامنا من خيار سوى تبنيها، بينما يصر الرافضون على أن الثقافة المذكورة هي السبب في حالة الإخفاق العربي الراهنة على كافة الأصعدة، ولذا فإن السبيل الوحيد للخروج من هذه الحالة إنما –في نظره- هو العودة إلى قيم الأصول والتمرّس بها وتنفيذها حرفيا*، ويضيف أن ما يشكل العائق الأكبر في وجه تأسيس ثقافة عربية حقيقية ليست الثقافة الغربية، وإنما بلادة بعضنا، التي تسمح للاحتكارات الغربية بدفعنا إلى تكريس نوع معين من الاستهلاك لنوع معين من المعارف والسلع والبضائع وعقم بعضنا الآخر الذي يصر على أن هذه هي الثقافة الغربية[61].

ومن الواضح أن الاختراق الثقافي إذن ما هو إلا نقل الثقافة الأمريكية بكل ما تتضمنه من قيم ومفاهيم إلى مستوى الثقافة العالمية، وتعميمها على الأمم والشعوب بوصفها ثقافة وأيديولوجيا كونية، ومثل ذلك بما يعنيه من سيادة وهيمنة النموذج الأمريكي على الثقافات القومية، أو ما يصطلح على تسميته بأمركة العالم، وذلك كله تحت شعار حرية الحصول على المعلومات، حرية الرأي والتعبير، التمسك بحقوق الإنسان، الديمقراطية، الحرية وغيرها.

على هذا الأساس فإن فلسفة عمل المنظومة الإعلامية-الثقافية المهيمنة تقوم من أجل ضمان بقائها بشكل داروينـي، على مجموعة من المرتكزات تقوي نفوذها في مختلف الذهنيات وتمارس تأثيرها عليها، سيما منها الترفيه الذي يطغى على المواد المنتجة ويؤدي إلى بروز مجموعة من الظواهر السلبية مثل: تسطيح الوعي، النمطية، الهروبية...، أو بمعنى آخر فيقصد بالاختراق الثقافي محاولات فرض النموذج الغربي (الأمريكي) في ميدان الثقافة والاتصال على دول العالم، من خلال ما تنشره وسائل الإعلام المختلفة من مواد وبرامج قد تحمل في طياتها رسائل إعلامية تتعارض مع المثل، القيم والأخلاقيات السائدة في الوطن العربي، وبما يمثل نوعا من الحرب الثقافية من خلال محاولات فرض مظاهر الاغتراب اللغوي، الفكري والثقافي، محاولات طمس معالم الشخصية الثقافية العربية الإسلامية ومحاولات إغراق المجتمع العربي بمواد مناهضة للقيم الصحيحة، العمل على تزييف التاريخ العربي الإسلامي والعمل على تغيير البناء الاجتماعي والسكاني.

خاتمة:

التغريب هو جزء أساسي من رسالة الاستعمار والسيطرة الغربية يعمد إلى فرض هذه الفلسفات والمذاهب الغربية، بما فيها من تعارض واضطراب وزيف وذلك حتى يصيب

الثقافة العربية بالتمزق والانهيار، وقد جرت عملية التغريب التي عمد فيها النفوذ الغربي عن طريق سيطرته على الثقافة والتعليم والتربية إلى إقصاء القيم الإسلامية العربية وعزلها عن نطاق التعليم، أو عرضها عرضا هامشيا مشوها مع إبعاد كل ما يتصل بها من جوانب القوة أو البطولة أو عظمة الأثر التاريخي الممتد، مما كان له دور في تنشئة أجيال تحمل الأمانة للغرب ويعمل على إعلاء القيم الغربية.

حيث لابد من التأكيد على ضرورة جعل التراث العربي الإسلامي المورد الذي يستخدم كقاعدة عريضة تغذي الثقافة الإعلامية العربية، باعتبار أن له معطياته النفسية والقومية لتحجيم عقدة النقص الذي يسببه الاختراق الأجنبي في نفوس الشباب، ومصدرا ثريا لمواجهة تحديات إفرازات العولمة، وعاملا مساعدا لتشكيل تجانس ذهني وروحي بين شباب الأمة، وبالتالي مواجهة طوفان ظاهرة التغريب المتزايدة والتي أصبحت تخترق حدودنا ومجتمعاتنا بطريقة قسرية عن طريق تكنولوجيا الفضاء وبطريقة دس السم في العسل، من خلال وضع خطة علمية وتطبيقية للمؤسسات الإعلامية العربية ولصناع القرار الإعلامي، في كيفية مواجهة التغريب الثقافي والإعلامي وسبل المواجهة العلمية لمضامينه ومصادره، وخطة لتحصين الشباب من خلال مقترحات عملية في بناء رسالة إعلامية قادرة على حماية الشباب من الظواهر الإعلامية السلبية التغريبية في الحياة العربية المعاصرة.

في الأخير لا نريد أن يفهم أحد من هذا المقال أننا ندعو إلى مقاومة الحضارة الغربية بكل تجلياتها ومضامينها، فهذا أمر لا يفعله إلا الدونكشوتيون المحاربون بسيوف خشبية بل نريد ترشيد هذا النهل والاستقاء من هذه الحضارة وتسخيره لمصالحنا،... كي لا نصبح مثل الغراب الذي حاول تقليد مشية الحجلة ففشل في تقليدها ثم نسي مشيته هو!!... فنكون بذلك نكتة العالم ومثار سخريته.

---

[1] جازية فرقاني: **مصطلح التغريب بين الماهيّة والدلالة**، مقال منشور على شبكة الانترنت، شوهد بتاريخ 2018/10/03، على الساعة: 16:21 عصرا، http:www.awu-dam.org/esbou1000/1069/isb1069-017.htm

[2] بشاير العبد الله: **التغريب وتأثيره على الثقافة العربية**، مقال منشور على شبكة الانترنت، شوهد بتاريخ 2018/10/03، على الساعة: 16:14 عصرا، www.alsakher.com/vb2/showthread.php?t=84741

[3] عبد الجبار الرفاعي: **مفهوم التحيز والتمركز المعرفي في التفكير الديني الإيراني المعاصر**، مقال منشور على شبكة الانترنت، شوهد بتاريخ 2018/10/03، على الساعة: 16:16 عصرا، www.ahewar.org/debat/show.art.asp ?aid=106346

[4] رفيق حبيب: **التحديث بين التغريب والتجديد**، مقال منشور على شبكة الانترنت، شوهد بتاريخ 2018/10/03، على الساعة: 16:19 عصرا، www.asharqalawsat.com/leader.asp?section=3&article=2081728issueno=9151

[5] محمد حسن يوسف: **التغريب في ديار الإسلام**، مقال منشور على شبكة الانترنت، شوهد بتاريخ 2018/10/03، على الساعة: 16:25 عصرا، www.saaïd.net/arabic//ar189.html

[6] Philippe Merlet et autres: **Le petit Larousse**, édition Malesherbes, Italie, 2003, P709.

[7] ممدوح طه: **التغريب بين التحديث والتغريب** ، مقال منشور على شبكة الانترنت، شوهد بتاريخ 2018/10/03، على الساعة: 16:27 عصرا، http:www.diwanalarab.com/spip.php ?article4667

[8] القرآن الكريم: سورة الحجرات، الآية 13.

[9] عبد الفتاح مراد: **موسوعة البحث العلمي وإعداد الرسائل والأبحاث والمؤلفات: انجليزي-فرنسي-عربي-شرعي**، دون دار نشر، مصر، 1999، ص69-70.

* **مثال:** عندما غزا الأوروبيون القارة الأمريكية المكتشفة حديثا عام 1492، حدث تثاقف بين أهل البلد المحليين وبين القادمين من أوروبا، إلا أن هذا التثاقف كان غير متكافئ إضافة إلى أنه تم بالعنف، فالغزاة الجدد اقتبسوا بعض النماذج الثقافية البسيطة كإدخال البطاطا في الطبخ نقلا عن الهنود المحليين، وبالمقابل زعزعوا النظام الثقافي القائم عند السكان المحليين بشكل وحشي، وفرضوا عليهم اعتناق الدين المسيحي والتخلي عن معتقداتهم السابقة القائمة ... وهكذا فهذا التثاقف

قد تم بالإكراه، القوة، والعنف هذا الأمر الذي أدى إلى ردود أفعال من السكان المحليين، تمثلت غالبا في الأصولية الحادة والعنيفة.

[10] عبد الفتاح مراد: **موسوعة البحث العلمي وإعداد الرسائل والأبحاث والمؤلفات: انجليزي-فرنسي-عربي-شرعي**، مرجع سابق، ص 71.

[11] لطف الله خوجة: **منابع التغريب**، مقال منشور على شبكة الانترنت، شوهد بتاريخ 2018/10/03، على الساعة: 16:23 عصرا، www.alasr.ws/index.cfm?method=home.con&contentID=8817

[12] سلمان بن فهد العودة: **أدواء التغريب**، مقال منشور على شبكة الانترنت، شوهد بتاريخ 2018/10/03، على الساعة: 16:18 عصرا، http://islamtoday.net/pen/show articlescontents.cfm?id=64&catid=8954

[13] أنور الجندي: **الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية**، مكتبة الأنجلو-مصرية، مصر، 1961، ص219.

[14] لطف الله خوجة: **منابع التغريب**، مرجع سابق.

[15] سلمان بن فهد العودة: **أدواء التغريب**، مرجع سابق.

[16] أنور الجندي: **الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية**، مرجع سابق، ص187.

[17] نزار الحديثي: **سياسة التغريب في الوطن العربي**، مجلة أوراق عربية، مركز الدراسات العربية، المملكة المتحدة البريطانية، 1980، ص11-12.

[18] نفس المرجع السابق، ص12-13.

[19] **وسائل الإعلام والغزو الفكري، إعلامنا سلاح دمار شامل**، مقال منشور على شبكة الانترنت، شوهد بتاريخ 2018/10/03، عى الساعة: 16:27 عصرا، http://I3lam06.jeeran.com/archive/2006/11/117396.html

[20] أنور الجندي: **الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية**، مرجع سابق، ص193-194.

[21] نفس المرجع السابق، ص 216.

[22] محمد عبد الواحد حجازي: **الثقافة العربية ومستقبل الحضارة**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، مصر، 2000، ص160.

[23] أنور الجندي: **الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية**، مرجع سابق، ص 216-217.

[24] نزار الحديثي: **سياسة التغريب في الوطن العربي**، مرجع سابق، ص 10.

[25] عبد الله هوادف: **السياسة الخارجية الأمريكية تجاه إسرائيل في إطار الصراع العربي الإسرائيلي**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة الجزائر، 2002، ص203-204.

[26] نفس المرجع السابق، ص205.

[27] ليث سعود القيسي: **التحديات المعاصرة وآثارها على سلوك الشباب الدعوي**، مقال منشور على شبكة الانترنت، شوهد بتاريخ 2018/10/03، على الساعة: 16:36 عصرا، http://islamtoday.net/questions/Show_articles_content.cfm?id=71&catid=73&artid=10622

[28] الطيب الجويلي: **البث الإعلامي عن طريق الأقمار الصناعية والإعلام العربي**، دار المسيرة، الطبعة الأولى، لبنان، 1991، ص63.

[29] محمد محمود ذهبية: **الإعلام المعاصر**، دار أجنادين للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، المملكة العربية السعودية، 2007، ص95-96.

[30] أنور الجندي: **الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية**، مرجع سابق، ص176.

[31] نفس المرجع السابق، ص177.

[32] نفس المرجع السابق، ص178.

[33] سلمان بن حمد العتيبي: **العولمة والدعاية**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر، 2002، ص 214.

[34] نفس المرجع السابق، ص215.

[35] نفس المرجع السابق، ص249.

[36] أمين سعيد عبد الغني: **الثقافة العربية والفضائيات: رؤية إعلامية من منظور منهجية التحليل الثقافي**، مرجع سابق، ص67.

[37] سوزان سلامة: **التغريب والغزو الثقافي والفكري**، مقال منشور على شبكة الانترنت، شوهد بتاريخ 2018/10/03، على الساعة: 16:12 عصرا، www .adabhome.com/vb/showthread.php?t=1408..

[38] باسم علي خريسان: **العولمة والتحدي الثقافي**، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، لبنان، 2001، ص 39.

[39] أحمد عيساوي: **الثقافة الوطنية وتحديات العولمة**، شركة مزوار للطباعة والنشر، الجزائر، 2004، ص75.

[40] باسم علي خريسان: **العولمة والتحدي الثقافي**، مرجع سابق، ص40.

[41] طه عبد العاطي نجم: **الاتصال الجماهيري في المجتمع العربي الحديث**، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2005، ص 163.

[42] الطيب بن إبراهيم: **قراءة مختصرة لكتاب: الإستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر**، مجلة الدراسات الإسلامية، العدد الثامن، الجزائر، 2005، ص 135.

[43] مسعود ضاهر: **مجابهة الغزو الثقافي الإمبريالي الصهيوني: دراسة في الثقافة المقاومة**، منشورات المجلس القومي،المغرب، الطبعة الأولى، 1989، ص23.

[44] سوزان سلامة: **التغريب والغزو الثقافي والفكري**، مرجع سابق.

[45] باسم علي خريسان: **العولمة والتحدي الثقافي**، مرجع سابق، ص40-41.

[46] نفس المرجع السابق، ص41-42.

[47] محمد عابد الجابري: **المسألة الثقافية**، سلسلة الثقافة القومية، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، لبنان، 1994، ص181-182.

[48] علي محمد حوآت: **قراءة في الخطاب الإعلامي والسياسي المعاصر: مخاطر الغزو الثقافي والإعلامي في الوطن العربي**، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، مصر، 2005، ص 87.

[49] فؤاد بن حالة: **صدمة الاتصال الشمولي: الأنظمة والمجتمعات العربية في مواجهة التحدي**، ترجمة: أحمد عظيمي، منشورات ANEP، الجزائر، 2005، ص12.

[50] محمد عابد الجابري: **المسألة الثقافية**، مرجع سابق، ص190-191.

[51] علي محمد حوآت: **قراءة في الخطاب الإعلامي والسياسي المعاصر: مخاطر الغزو الثقافي والإعلامي في الوطن العربي**، مرجع سابق، ص 87.

[52] محمد عابد الجابري: **المسألة الثقافية**، مرجع سابق، ص191-192.

[53] نفس المرجع السابق، ص 192.

[54] علي محمد حوآت: **قراءة في الخطاب الإعلامي والسياسي المعاصر: مخاطر الغزو الثقافي والإعلامي في الوطن العربي**، مرجع سابق، ص 88.

[55] محمد عابد الجابري: **المسألة الثقافية**، مرجع سابق، ص 193.

[56] راضية فويال: **العولمة الثقافية ومفهومها ضمن الركن الثقافي لجريدة الخبر اليومية**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر، 2003، ص95.

[57] محمد عابد الجابري: **المسألة الثقافية**، مرجع سابق، ص 193-194.

[58] راضية فويال: **العولمة الثقافية ومفهومها ضمن الركن الثقافي لجريدة الخبر اليومية**، مرجع سابق، ص96.

[59] حسين علوان حسين: **العولمة والثقافة العربية**، العولمة والهوية، أوراق المؤتمر العلمي الرابع لكلية الآداب والفنون، دار مجدلاوي، الطبعة الثانية، الأردن، 2002، ص119-120.

[60] محمد عابد الجابري: **المسألة الثقافية**، مرجع سابق، ص 218.

* على أن الذي فات الجميع إدراكه هو أن الحرب الدائرة بينهم إنما هي حرب وهمية، مجانية، ولا موضوع لها، ولا فلا يمكن أن تنتهي إلى ما يتجاوزها ويلغيها لأنها ليست حربا بين طبقة وأخرى خرجت من جوفها لتخلفها وتحل محلها، كما حدث في الصراع في الغرب بين البرجوازية والإقطاع وإنما هي حرب تناحرية بين مرجعيات وذهنيات صورية تعمق الهوة، تكرس التشرذم والتمزق مما يفسح المجال لبروز النعرات الإثنية والتعصب الطائفي إلى السطح... وكل هذا على حساب حاضر الثقافة الوطنية والقومية ومشروع مستقبلها.

[61] حامد خليل: **الحوار والصدام في الثقافة العربية المعاصرة**، دار المدى، الطبعة الأولى، سوريا، 2001، ص 56-57.